دور الجامعات الاسلامية
في تكوين الدعاة

بقلم

الدكتور / محمد بن سعد الشويعر
الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والافتاء
والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية

(الدعـاة وتأثيرهم)

القلب هو الوعاء الذي جعل فيه موطن العقل . كما قال تبارك وتعالى ﴿ لهم قلوب يعقلون بها ﴾ .

وأي أمر يتمكن من هذا القلب ، ويتأصل في حناياه ، فإنه يقال عنه : بلغ شغاف قلبه وقد قال الجوهري في الصحاح : بأن الشغاف غلاف القلب ، وهو جلده دونه كالحجاب . وقرأ ابن عباس : « قد شغفها حباً » أي دخل حبه تحت الشغاف ، كما جاء في تاج العروس للزبيدي .

فالأمر الذي ترتاح إليه النفوس ، ويستولي على المشاعر ، ويكون له تأثير في العمل ، يقال عنه بأنه بلغ شغاف القلب .

وهذا الداعية إذا أثر في القلوب واستمال النفوس يعبّر عنه بأنه دخل إلى شغاف قلوب الناس .

ولما كانوا يطلقون على القلب بأنه : ملك الجوارح . . والملك هو القائد والموجه في الأمة ، فهو الذي يأمر ويطاع ، ولذا فإنه لا يؤثر في هذا القلب إلا الكلمة ، ولا تتحكم فيه هذه الكلمة إلا بعد القناعة من الآخذ ، وصدق القول من المعطي .

والقناعة أيضاً لا تأتي إلا وقد استحوذت على المشاعر ، وكانت وافية ، ومتحينة للعوامل المؤثرة من حيث : الوقت . والمناسبة . وصفاء الذهن . والقدرة على الاستيعاب والفهم مع القدرة في المتكلم ، واستصحاب الحال .

ورسول الله ﷺ ، وهو القدوة الحسنة في تأثير الكلمة ، وتوضيح المراد ، مع تقبل الناس ومتابعتهم لما يقول أو يفعل .

كان يتحيّن الأوقات ، ويربطها بالأحداث ، لتكون أوعى للنفوس ، وأدعى للاستيعاب ولذا حفظ أصحابه سنته ، ورصدوها لمن جاء بعدهم بدقة وأمانة . يقول

عبدالله بن مسعود الصحابي الجليل رضي الله عنه : كان رسول الله ﷺ ، يتخوّل أصحابه بالنصيحة بمعنى أنه يتحين الفرص التي فيها تتفتح النفوس، وتتهيأ لاستقبال الأمر، فيعطيهم النصيحة التي تثبت في أذهانهم، وتتمكن في قلوبهم .

ولنا فيه ـ ﷺ ـ أسوة حسنة ، وقدوة صالحة ، فهو مثل يقتدي ، وخير معلم يؤخذ عنه .

والدعاة في كل عصر ، وأينما حلوا ، سواء كانوا وعاظاً بالكلمة عبر اللسان ، أم مؤثرين بالقلم عبر قنواته المتعددة ، أم ممتطين لوسيلة من وسائل الإعلام المرئية ، أو المسموعة ، أو المقروءة .

فإنهم في عملهم هذا يخاطبون العقول ، ويحاولون الولوج لداخل القلوب .

وحتى يكون عملهم هذا مؤثراً فيما يصلح الناس في دنياهم ، وأخراهم ، فإن جهودهم هذه يجب أن تنبع من القلوب صادقة في المقصد ، مؤمنة بالهدف . كما قيل في الحكمة : ما صدر من اللسان لا يتجاوز الآذان ، وما صدر من القلب دخل إلى القلب .

وإذا كان الممتطون لصهوة الدعوة كُثُراً ، بحيث امتلأت بهم ساحة العمل ، وردهات المطابع ، وأجهزة الإعلام ، فإن السؤال الذي يطرح أمام المستقصين : من هو الصادق؟ وما مقياس ذلك ؟؟

ولما كان الحكم بصدق فئة دون فئة ، من الضرب بالقول جزافاً ، لأن ذلك لا يبرز علانيته ، إلا أن له علامات ، تتجاذب مع طباع الشخص ، كما قال الشاعر الحكيم زهير بن أبي سلمى .

ومهما تكن عند امرىء من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

ومن أبرز تلك العلامات أن يكون الداعية : عاملاً في نفسه ، بادئاً بمن حوله في المتابعة والتطبيق ، فالناس لا تميل قلوبهم إلى من يخالف قوله عمله ، لأن عيونهم ترصد وحواسهم تلتقط المعلومات ، وتتشمم الأخبار ، ولا يكتفون بنبذ ما يقول ذلك الداعي ، أو عدم الامتثال والاستماع له ، بل قد يكون ذلك المتقوّل عرضة للقدح ، وامتحان العرض ، لأنه وضع نفسه في المحك ، وعرّض عقله للامتحان ، وبسط عمله للناس يقول الشاعر :ـ

لا تنهى عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

وهناك فئة من الدعاة تدفعهم حماستهم وغيرتهم ، إلى إمتطاء ذلك المركب ، والتصدى لتوجيه الناس على مختلف مستوياتهم .

وهؤلاء نقول لهم : حتى تكونوا مؤثرين في غيركم ، وكلامكم مقبولاً لدى الآخرين ، فإنكم يجب أن تكونوا كالطبيب الذي يتلمّس الداء في المريض ليشخّصه ، وعلى إثر ذلك يصف الدواء المناسب ، ويحدد المدة الزمنية التي يتم استعمال الدواء فيها .

ولذا فإن عليكم أن تتلمسوا ما يؤثر في كل مجتمع وبيئته ، فما يصلح هنا لا يصلح هناك وما يحدّث به في مجتمع ، قد لا يتلائم مع مجتمع آخر ، كما أن الطبيب لا يعطي مرضاه نوعاً واحداً من الدواء ، بل يصف لكل واحد ما يتلاءم مع حالته ، وما يقتضيه مرضه .

فعلي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول : حدّثوا الناس بما يعرفون أتريدون أن يكذّب الله ورسوله .

وإذا كان الطبيب يهتم بمعالجة الأجسام ، فإن الداعي إلى الله يعالج ما هو أدق وأشد حساسية ، إنه يعالج القلوب التي بصلاحها يصلح الجسم ، ويسلم المجتمع ، وبفسادها تنعكس الآثار السلبية عليها .

ومن نفس المنطلق الذي يسير فيه الطبيب والمهندس والفني والمزارع وغيرهم ، كل في مجال عمله ، وحسب تخصصه : يجب أن يسير الداعية في استمالة القلوب ، والتأثير فيها .

وقد جعلنا الطبيب هنا نموذجاً للقياس والمقارنة فقط . وإلا فلكل صاحب حرفة ، طريقته في النجاح ، وذلك بتفاعل نفسه مع عمله : بالمتابعة والاهتمام والتجديد . فالطبيب لكي يكون ناجحاً ذا روّاد لعيادته ، وبالتالي يزداد دخله من عمله ، وتكبر مكانته عند الناس ، فإنه يحرص على إتخاذ الخطوات التالية :-

- الاهتمام بتشخيص الداء ، ومؤانسة المريض ليشعره بالأهمية حتى ترتاح نفسه إليه .
- التقليل من الأدوية التي تعطى للمريض ، والاقتصار على الأقل المفيد المأمون العاقبة ، حتى لا يتأثر المريض بما هو أشد .
- يراجع كل أمر ساوره شك فيه ، مع غيره ممن هو أقدر في مجاله ، أو مع مراجعة المصادر الجديدة في تخصصه حتى لا تنتزع الثقة منه .

- ينمي حصيلته العلمية بالإرتباط بما هو مفرغ نفسه بحثاً وقراءة واستقصاء حتى يقف على كل جديد يفيده، ورغب الناس فيه .

والداعية المتحمس لمهمته ما عليه لكي يقنع الناس بما يدعو إليه، ويجذبهم إلى الهدف الذي دعا إليه، وهو المكانة السامية التي رسمها الإسلام لمن اتبع منهجه في الدنيا والآخرة، ما عليه إلا أن يسلك طرقاً تعينه على دخول القلوب، ثم الاستقرار فيها بالمحبة لنفسه، ولما دعا إليه مثل :

- لا يتشنج في دعوته، مما يفهم منه الإصرار على أن يقبل الناس منه كل ما يقوله دفعة واحدة. فالكلمة المؤثرة هي التي تكون لينة في سلاسة الماء ورقته، تمر بهدوء وتستوعب الموضوع بأقصر جهد، وتتوالى بدون يأس أو إنهزام .

كما تتجمع قطرات الماء في إنحدارها ليتكون عنها مجرى الوادي، ويزداد ذلك المجرى تأثيراً حتى يحفر الأرض، أو يهدّ القلاع والجبال .

ألم يقل سبحانه لنبيه الكريم ﷺ «إن عليك الا بلاغ» أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين» .

- لا يلزم الناس بسماع كلمته، أو قراءة ما سطره قلمه، فللناس ما يشغلهم، وما كل وقت يعدُّ ملائماً، وليقس على نفسه : ألا توجد لديه أوقات ينشغل ذهنه خلالها ؟؟!!
- فصفاء ذهن الداعي شغل لغيره، والوقت المناسب لك غير ملائم لغيرك والناس ليسوا على وتيرة واحدة. وهذه سنة الله في خلقه : فواحد يفرح ويضحك، وآخر مهموم يبكي، وثالث مشغول الفكر منجذب الاحاسيس، ولنأخذ مثالاً من دروس رسول الله ﷺ لأصحابه : فقد نهى معاذ بن جبل رضى الله عنه عن الإطالة في الصلاة، وهي عبادة من أفضل العبادات، بل هي الحدّ بين الإسلام والكفر، وقال له : «أفتّان أنت يا معاذ ؟! من أمّ بالناس فليخفف، فإن فيهم الضعيف وذا الحاجة والمريض» .
- وعلى الداعية الا يكرر ما يقول، لأن لآذان الناس حاسة دقيقة تستوعب بها الأشياء فإذا تكررت لديهم نفرت منها نفوسهم، ونفورهم من المكرر الذي لم يطلبوه، قد ينعكس على صاحبه، فتنقفل أذهانهم عن قبول ما يصدر عنه بعد ذلك، ولو كان جديداً مفيداً .

كما يكون في هذا التكرار مجال لمن يريد النيل من الدعوة عموماً إذ يجدها فرصة للقول، ومجالاً لنقاط الضعف .

وحتى يتفادى الداعية إلى الله هذا العمل، فإنه لابد من توسيع المدارك، وإكثار القراءة، وتوسيع الأفق بالنقاش والمداولة .

مما يترتب عليه تعدد جوانب المعرفة، وفهم أمور ما كانت لتدور بخلده من قبل. فما سطر في الكتب ما هو إلا جهود لأناس سبقونا خبرة، وأفادونا علماً وتجربة .

- وإذا كان الجاحظ في كتابه «البيان والتبيين» والقلقشندي في كتابه : «صبح الأعشى» وغيرهما ممن ذكروا شروطاً للخطيب، وعلامات للكاتب، حتى يكون كلامه مقبولاً، ورأيه مؤثراً مثل : نبرات الصوت، المظهر العام، الاعتماد على قوس أو عصا، أختيار الكلمات ذات المعنى، قصر الكلام، وغير ذلك، حيث ذكر بعضهم القول المأثور: في فقه الرجل تقصير الخطبة وإطالة الصلاة .

فإن الداعية يجب أن يراعي أموراً منها :-

- عدم الإطالة فلو حدد المتكلم لنفسه قبل البدء خمس دقائق، وشعر الناس بذلك لرأيناهم يصغون اليه، ويتابعون كلامه .

وكذلك الكاتب الذي يراعي ما يلائم موقفه، أو يتلاءم مع مسمّى محاضرته بحيث يصبح مثل هذا العمل سمة لكل منهما، يتناقلها الناس، ويعرفون كلا بهذه الخصل .

- تخصيص موضوع واحد للحديث، وليكن إجابة عن سؤال أو مراعاة لمناسبة من المناسبات التي تؤرق الناس، وتكون موضوع حديثهم. والتقيد بذلك بعدم الخروج عنه إلى غيره .

فإن في هذا دلالة على فقه الرجل، وتفاعله مع الأحداث، وحرصه على التأثير في النفوس، للوصول إلى أسرع وسيلة في علاجها، فالناس يحفظون ويرسخ في أذهانهم كل أمر طلبوه، أو أحسوا به كمشكلة في حياتهم .

وهذه علامة للداعي تميزه في فهمه وعلمه واستيعابه. وهو بهذا يزداد حصيلة علمية بالبحث والاستقصاء، كما يتفقه عنه السامعون والقراء وإحاطة بجوانب ماتم الحديث عنه، ومعرفة بأمور هامة قد ترسخ في أذهانهم .

- وعلى الداعي إلى الله أن يتحين الأوقات التي تخف أعمال الناس فيها، لأن القلب المشغول كالصخرة الصماء ينحدر الماء من فوقها، ولا تستفيد منه. والبطن الجائع يحتاج إلى الغذاء قبل حاجته إلى الكلام .

وقد جاء في الحديث الشريف «**إن الله لا يقبل دعاء من قلب غافل**» أي منصرف عن مولاه .

فإذا كان هذا في شيء بين العبد وخالقه ، وهو سبحانه أكرم وأجود من خلقه ، فما بالك بشيء بين المخلوقين أنفسهم ؟؟!! وهذا مايسميه البلاغيون استصحاب الحال .

- أن يكون الداعي إلى الله لينا في حديثه ، سهلاً في تعامله . لأن عدم اللين يورث البغض والبعد عن المتحدث ، ومن ثم عدم الاستجابة لحديثه ، ألم يقل سبحانه وتعالى لنبيه الكريم ﷺ : «**ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك**» ولنبيه موسى واخيه هارون عليهما السلام عندما أرسلهما ربهما لفرعون لدعوته إلى دين الله : «**فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى**» .

فالحلم وعدم الغضب من الأمور المشروطة للداعية ، لأن ذلك من رغبات الناس وسرعة استجابتهم ، وهذا جزء من اللين الموصل للغاية المحمودة .

- أما الإحاطة والشمول فهي من مستلزمات الداعية إلى الله سواء كان داعية بلسانه أو بقلمه .

ذلك أن الداعية أمام المدعوين ، كالمعلم أمام التلاميذ ، قد يفاجأ بسؤال محرج ، فلابد أن يكون الجواب حاضراً ومقنعاً ، وإلا سقطت مكانته بين مستمعيه .

وهذا لا يقتصر على الموضوع الذي يتحدث فيه ، وإنما هو من توسيع المدارك العلمية التي يجب أن يتحلى به الداعية ، حيث يجب أن ينطبق فيه رأي الفقهاء : «العلم فيما يدعو له ، والعلم فيما ينهى عنه ، والحلم فيما يدعو له ، والحلم فيما ينهى عنه» . فهو قد يستثار برأي ، أو يحرك بسؤال .

والداعي إلى الله لن يستطيع التحكم في القلوب ، والإستيلاء على المشاعر ، فلا إفادة من الهدف الذي نصب فيه ، أو العمل الذي وجه إليه ، مالم يعرف مداخل النفوس ، ويحيط بالمؤثرات فيها ، ليستطيع تشخيص دائها ، ومعرفة المنافذ إلى علاجها ، وذلك في نظري سهل ميسر ، لمن وفقه الله ، لأن القلوب أكثر استجابة من الأجسام وأنفع تعاطفاً مع طبيبها وهو الداعية

ودواؤها لكي يكون متفاعلاً، وظاهرة آثاره، فإنه لابد من جهد من الداعية ومغالبة النفس لأنه لن يتحقق شيء إلا بشيء .

والنظامي هو من يعالج نفسه أولاً، وبمن يعول ثانياً، فيرتاح الناس منه ثالثاً، وينجذبون إلى أعماله وجهوده تلقائياً، وهذا هو القبول الذي يجعله الله في قلوب الناس، لمن حسن عمله، وصدق في نيته .

وهذه منزلة رفيعة في الدعوة، لا يصعد إليها إلا فئة قليلة من الناس في كل مجتمع وزمن، يجب أن تهتم الجامعات بإعدادهم، وتنمية جذور الأعمال الخيرة في نفوسهم منذ إعدادهم دراسياً . . بالتوجيه والنصح، والتدريب والعمل، وبالمتابعة والمنهج الدراسي .

فالدعوة إلى الله من أشرف الأعمال وأنبلها، وهي رسالة أنبياء الله إلى الخلق كافة، ومن سار على دربهم يجب أن يتخلق بخلقهم، ويترسم خطاهم، ويجب على الجهة المشرفة على إعدادهم صياغتهم في هذا القالب، وتعهدهم منذ البداية، حتى تؤتي الدعوة ثمارها ويتحقق للداعية ما قام من أجله . .

والله الهادي إلى سواء السبيل